سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر الفرنسي سوريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

الفصل الثاني

« قصر باريس إجلانو في الجيزة على ضفاف النيل ، القصر خال من كل شيء ، لا مكتبة ولا كتاب ، هنالك أزهار في آنيتها ، تمثال صغير في إحدى الزوايا ، وفي الأعماق شرفة تطل على الصحراء كأنما تطل على بستان من الرمل الذهبية المتوهجة . والزمن شفق ! »

المشهد الأول

باريس (على مقعد ممدود) وسانتيا شقيقته إزاءه

سانتيا — الجو جميل والفصل بهي . . .

باريس — امحي هذه اللمعات البيض البعيدة

سانتيا — هذه ممفيس كما تعلم وينابيعها التي تجري كأنها تجري من الأحلام

(يرى قرويات حاملات جرارهن)

باريس — روما ! إن تماثيلك لا تبلغ مثل هذه الروعة : أراهن — وهن يمشين — كأن الحياة تكاد تدب فيهن . سانتيا ! ليس الجمال في أطواء الكتب . لا تمثل الكتب شيئاً ؛ إنها ليست إلا لحداً !

سانتيا — أو بعض شيء ندي يرشف !

باريس — (يرى النسوة كأنما يؤلفن صفاً من الجمال لا ينفصل عن العيون) أليس هذا جميلاً حقاً ؟

بلى ! ليس الجمال في المكاتب ، إنما الجمال في ظل القدم ، في الظل اليوناني ، وفي الأمم التي يمكن إيقاعها وأوزانها تحت الأرض ، حيث تؤلف كل اثنتي عشرة خطوة في الليل بيتاً من الشعر

سانتيا — إننا غادرنا من أجلك الحدائق المؤرجة بالياسمين كالأزهار الندية ، وقد هجرت الكتابة يا باريس ! فلماذا لم تعد تكتب شيئاً ؟

(يشير باريس بيده)

لاحق لك في الصمت ! إنني أسمع مكتئبة إلهاماتك ، التي تتحرى عن كلماتك . أنت لا تستطيع أن تبقى هذا العندليب صامتاً . ألا تود أن تكتب شيئاً ؟

باريس — أبداً !

سانتيا — وهذه الأبيات ، وهذه الأغاني الحادة المشوشة التي تتنهد في نفسك ؟

باريس — سأصرفها عني ! بل سأطردها كأنها أفاق متشرد ! على أني في بعض خطراتي لا أكتمك أنني أسمعها صارخة شاكية راجية أن تبقى وأن تحيا . يرجوني تنهدي قائلاً : ضمني في كتابك ؛ وألمي الفتي يهتف بي : « خلدني » ؛ وخفوق قلبي يصيح : « دعني أبقى » . مع أن كآبات مساء شاكية ، لأنها أضاعت أجنحتها ، تود أن تبقى خالدة

سانتيا — إنها لجريمة ! . . .

باريس — ذلك حسن ! على أني في الحقيقة أعبد وأقدر هذه الآثار الرائعة المعجبة التي لم أقم بها

سانتيا — أتبكي ؟

باريس — ماذا تريدين منى ؟ لى ؟ . . . إننى أذرف الدمع تهتاناً بلا انقطاع ! لقد كنت قبلاً أعبر فى قصائدى الأولى عن فنونى ، ولقد كان صراف الزمان فى الليل مشرقاً ، أما اليوم — ياسانتيا التعسة — ماعسانى أصنع فى شعرى ؟ وأغانىّ المدهشة قد فقدت رقتها وأصبح أجملها ما طفح بالدموع

سانتيا — إذا شدا العندليب فى شدوه رنة البكاء

باريس — فى الآلام الكبيرة لا يستطاع الغناء !

سانتيا — ألا تجد نفسك — خلال سكينتها — آسفة على سماء إيطاليا وعلى ذلك الساء المائى الذى نثرت فيه روايتك على الشعب الهائج

باريس — لا آسف على شىء

سانتيا — ولا على القطعة الممزقة : ذلك الأثر الذى لم يعد يجدى شيئاً . قطعة الممزقة صفعت المدينة جماء ، ولم يبق منه إلا نسخة واحدة . إننى فكرت فيه وفكرت فى تلك المزق المتناثرة فى الليل . هذا فؤادك يا باريس ! فؤادك الكئيب الزاهق مزقته فى كل ورقة تطير ! ألا تأسف على ذلك اليوم المقطوب ؟

باريس — لا ! وصنعت فى ذلك اليوم ما أصنعه دائماً ، لأنى ما كتبت لحظة إلا طارحاً فؤادى على الناس . إننى غير آسف على شىء

سانتيا — ولكن ألا تأسف على صوت إزابيلا ؟ ألا تأسف على ذلك الكيان الملتهب الذى بنظرة واحدة منه عرف أن يصنعك ! إنها يا باريس كانت إلهة فنك ؛ فهل تستطيع أن تفر من صوتها ومن نظرتها كل دهرك ؟ وهل نسيت أنك أصبحت تصنع أجمل أشعارك لتشدو بها ؟

باريس — تلك كانت القيثارة التى يفتش عنها فؤادى ، واليوم أصبحت غير محتاج إليها . لقد كسرت قيثارتى وأصبحت لا آسف على شىء ! أقول لك : ما يهمنى كل ذلك ؟ وهل الشجرة التى عانقت يونيو تفكر فى ما تناثر من أوراقها فى الخريف ؟ إننى أحب هذه العزلة التى أحيا فيها الآن !

قد بلغنا الجيزة ليلاً كغرباء راحلين ؛ أنت ومارسيللوس وأنا ، لم نجد من ينقل متاعنا إلا هذا الفتى المصرى ؛ وكانت لكل هذه العيون الممدودة هيئة عينيك . لا صحف ولا جلبـــة ، ولا فتيان ولا مصورون ! كل هؤلاء لم يشقوا سبيلاً إلى الصحراء ، ولم يجدوا منفذاً إليها ؛ فهذه النخلة المهملة لا تعرف أشعارى ، وأبو الهول الجبار يسخر — فى أعماق الليالى المصرية — من هؤلاء المفسرين أحاجى الحياة ، الجاهلين أحجيته العجيبة ولغزه الغريب ، وإنى لأرانى مفتوناً بهذه الظلمات الجديدة ، وبهذه الغبطة التى لا تجعل منى رجلاً مشهوراً . . .

ما عسانى أقول ؟ إن اسمى — هنا — شىء مجهول ، ولا شىء من كل الجلبة التى قامت حوله بلغ هذا المكان . كذلك الزهو الانسانى يتلاشى ويشعر بصغاره وحقارته على أقدام الأهرام . لا أحد يعلم اسمى ، ولا أحد يعى كلمة من كل ما صنعته

(يفتح الباب وتدخل فتاة مصرية وتقف أمامهما كأنها رمز خفى من رموز المدينة)

الفتاة — الشاعر إيجلانو !

المشهد الثانى

الفتاة — (بتردد) :

الشاعر إيجلانو

سانتيا — ولكن . . .

الفتاة — هذا هو يا سيدتى

باريس — إنك واهمة

الفتاة — ولكنى جزت المدينة بحجابى الملتهب لأحظى برؤيته ، والبيت الصغير الذى تحرسه نخلة

سوداء اجتذبني كأنه معبد في الطبيعة ، لأن لنا قلوباً إن لم يكن لنا وجوه

باريس — خطأ !

الفتاة — نحن اللواتي نظل وراء أقنعة الكآبة حتى في النهار يأتي إلينا « الغرب » مع نسائم البحر

باريس — ولكنه لا يحيا هنا

الفتاة — تخطر صورته بين جوانحي دائماً ، صورته المحبوبة ، صورة هذا الذي يُبكي عليه أشد بكاء . بلى ! أهواه ؛ وكل قصيدة من قصائده الملتهبة تقدر أن تعبر عن نفسي بلهجة أوضح من لهجتي . إني أنطق مع أبياته ، وأحس مع ذكرياته ، وأتألم لهتافه ، وأحب مع تنهداته

باريس — ولكنه مات

الفتاة — (بلهفة) مات ! يا إلهي ! ليس ذلك ممكناً

باريس — مات ؛ ولي الفخر بمعرفته ؛ لقد كان لي صديقاً

الفتاة — مات . . .

باريس — أنت تبكين . . .

الفتاة — أحس أن الوجود كله أمسى محدوداً

باريس — (محطماً الصورة من بين يديها)

وهذه الصورة . . .

الفتاة — أصونها وأقدسها منذ عامين

باريس — أنظري ما أنا صانع بها

(يمزقها) والآن فابكي أيضاً !

الفتاة — إلهي . . .

باريس — ابكي الآن على شيء ؛ ابكي على صورة . . .

الفتاة — (مصعدة بصرها قليلا في وجه باريس)

هذا هو أنت ؛ فهمت الآن ، لا أحد يقدر على أن يأتي بهذا التجديف الشيطاني ... أنت إيجلانو لأنك مزقتها ، أنت باريس إيجلانو الذي أعبده

باريس — احملي قلبك فاني أحطمه

الفتاة — ولكني رأيتك

باريس — شاعر كبير بالقرب منك ؛ هذا هو أنا ! فلتوقن نفسك الطامحة ؛ هذا ما كنت تتمنينه

الفتاة — إذا كانت نفسك تريد في كل آن الهزء والسخرية ، فلا تفسد تلك الصورة التي أحفظها لك ، فكل ما أنا مدينة لك به من بهاء نور ، وقمم عالية ، وكل ما أودعته في صدري من أحلام ، ومثل أعلى ، وعظمة وجلال

باريس — أكاذيب وأضاليل !

الفتاة — المثل الأعلى !

باريس — إن هو الا قناع عتيق مزوق !

الفتاة — لقد كان غذاؤك لي خيراً من الشهد والخمر

باريس — أسكتي ! لقد كنت كاذباً

الفتاة — واسكت أنت ، وليكن الآن ما كان يجنوح ذوقك إلى الأسرار ، فأنت رفعت قلوبنا بأنينك وبكائك

باريس — إنه لحد فارغ ؛ بل ليته كان لحداً ! إنه ليس بلحد ، وهل العندليب الذي يبث شجواه على الأغصان ينادي موسيقياً لينقل دموعه ، وذلك الشقاء الأليم — بعد أن يبلغ القمة — ألا يسكت إلى الأبد ؟ لا ؛ اننا لم نقل شيئاً عن حظنا الشئوم ، ومن هذه المائدة الدامية لم يبق لك إلا البقايا

الفتاة — انني سأقنع بهذا اللحد الفارغ ... ولكن ماذا ! ان باريس إيجلانو حي يرزق ؛ فما يهمني الليل والسكون الكدري ؟ انه حي ؛ انه في صدر الحياة ، لن تكون الأرض خالية فارغة

(وتخرج وهو ينكب على الطاولة كأنه مجذوب بفكر سري ، يفتح درجاً وينظر في صورة ثم يضعها أمامه ، ويكتب ... وتخرج سانتيا)

المشهد الثالث

باريس — (منفرداً)

لا لا ... لا أستطيع

(قوة غريبة تدفعه الى الكتابة)

هذه هى المرة الأولى من بعد فصول فارغة وشهور خالية . لماذا ، لماذا ، لماذا يا إلهى ؟ هذا الموكب القديم ؟ الكلمات ؟ وأية كلمات تجديني نفعاً ؟

نفيتك عنى عشرين مرة أيتها النسمة الهابة من عالم الآلهة ، لا أريد هبتك علىّ ، ولا أريد أن أميل إليكِ . فى هذا المكان المنعزل لا أحد يشير إلى أنك تنزلين على الأرض

لا كتاب عندى : لا شىء . . . الهواء . . . الفضاء . . . الريح : ومارسيللوس وحده يتلو « فرجيل » حالماً . ولا يدل هذا البيت على أنه بيت شاعر ، وإنما يدل على راحة نفس قلقة ، التهمها قلقها

بلى ! هذا هو العنوان الوحيد الذى خلد لها فى الوجود ، وهذه صناعتى الوحيدة ، إننى قلق . . . فلماذا لا تزالين تعودين نفسى وتهيجينى أيتها الآلهة التى أكره زيارتها فى كل أصباحى ؟ ولماذا توسوسين للنفس بأبيات جديدة ؟ لا أود أن أكتب شيئاً ؛ أفهمت ؟ إن فكرتى الحميمة تذهب إلى أبعد من عالم الكلمات ، وأنا غادرت كل عالم التعبير والألفاظ

(يكتب بإملاء غير منظور)

« يا أبا الهول الأعظم ، يا وثن العدم !

الذى تدعونى إليك بعيداً عن العالم !

الصحراء هى أوقيانوسك ، والكواكب هى أحداقك !

تبدو لى كأنك علامة ساطعة !

خلال أعماق الأعصار والأعمار

أنت الذى شهدت صرعة الآلهة وشعبذت مع الغيوم

هذه غيوم !

الأبدية هى البساط الذى تسحب عليه مخاليك ،

وغذاؤك — حين تطلب الغذاء — أحلامنا »

(يتم الكتابة ، فيدخل مارسيللوس شاحب الوجه ، يدنو من باريس وباريس ما زال يكتب كالمجذوب بهذا الوحى . ينظره مارسيللوس وفجأة يطرح باريس ما كتبه على الأرض حين يرى مارسيللوس)

المشهد الرابع

باريس — مارسيللوس !

مارسيللوس — ماذا توارى عنى ؟

باريس — لا شىء

مارسيللوس — أشعراً ؟

باريس — (ناظراً فى مكان بعيد حيث يبدو أبوالهول كمارق فى الضباب المذهب)

ذاك من أجله ، لا من أجل هذا العالم القائم . اليكها ! ها هى ذى مطروحة على الأرض !

مارسيللوس — أتمنعها عن أخيك أيضاً ؟

باريس — وما عسى يجدى ذلك ؟ إنك تدرى الشحوب الذى تقنع به وجهانا !

مارسيللوس — ولكن ...

باريس — (يناول منه كتاباً) :

فرجيل ، دائماً !

مارسيللوس — أتلوه باستمرار ، إننى أعود دائماً إلى طريق النور حيث فتح « فرجيل » أجفانى . يخيل إلىّ أنه ينادى : « أنت مارسيللوس » والشفق المذهب مغمور بالسلام الهادئ ، يطفو عليه صفاء وخشوع ، أعود دائماً إلى بيته المظلم القائل « ستغدو مثل مارسيللوس » فهل يا ترى أحول يوماً ذلك الجوال الذى اختلسه الزمان من

مشعله ؟ وهل أموت قبل أن أستنفد فكرتى ؟ قبل أن أضوى من الحياة وقبل أن أجد « ڤرجيلاً » يحيانى فى النهاية خالداً ؟

باريس — ولماذا تتكلم عن الموت ؟

مارسيللوس — أتعلم لماذا أحلم به ؟

إنى إذا احتضرت قبلك على هذه الرمال المحرقة ، وإذا قدر لى أن أكون السابق وأنت اللاحق ، وإذا قدر أن يكون للأصغر أمر إرشادك إلى الطريق فى هذه الظلمات حيث ينهزم آخر فشل ، إذا قدر لك يا أخى البكر أن تقتفى أثر قبس مشعلى لتنزل فى مثواك ، فأقسم لى بأنك تتناول القيثار المهمل المحطم قطعاً على الشاطئ بقلب شجاع . أقسم لى بأنك تحيانى خالداً فى شعرك . إن جزع الموت يخف على وقعه إذا جئتنى خلاله وإذا قدمت واضعاً على لحدى إكليلاً من الغار ... أقسم !

باريس — (بابتسامة)

إنى مقسم لك ... ولكن لماذا يساورك هذا الشك فى نصيبنا ؟ إننا سنموت معاً فى يوم لا يزال بعيداً ، نموت كهلين هادئين عارفين سره الأكبر

مارسيللوس — (متنهداً)

إننى فى ريب من ذلك ؛ إننى لا أجد طريقاً أمام قدمى الفتيتين ... ويخيل إلى أن كل شىء منته أو محدود ، ولكن هذا ليس له جمال غريب ؟ جماله بألا نرى على هذه الأرض الصفراء التى طرحنا عليها القدر ، لا نرى من كل شىء إلا شبحاً ومعبراً ، لا نكتهل ولا نتألم ولا نحب . نرى كل شىء بعيداً دون أن نألفه أو نأنس به . غير متروحين الا وردة المجد !

أخى : ليس هذا القدر بقبيح ، أقسم لك على ذلك

يقول البيت الناقص : « ستغدو أنت كمارسيللوس » وإن حظه كله يتمثل فى ذلك المجد

(يبتعد قليلا وباريس يهز كتفيه باسما ثم يعود مارسيللوس على أثره)

مارسيللوس — نسيت أن أنبئك شيئاً عظيما . على قيد خطوتين منى فى الطريق أتعلم أنى لمحت « إزابيلا موتى » ؟

باريس — (بدهشة)

إزابيلا موتى . . .

مارسيللوس — هى ذاتها

باريس — إلهى !

مارسيللوس — لم تكن وحيدة ، كان يتبعها أرجانتى وجدتها هيلين

باريس — إن هذا لجنون : لا أستطيع أن أراها ... لا ! لا أستطيع ... إن الشاعر قد انتحر فى نفسى ، وإنى أطرد كل ما يحدثنى الماضى عنه بلسان عذب

إزابيلا . . . إنه اسم غدا بعيداً عنى ... إنها هى التى فررت منها فرارى من القدر

(يقرع باب الحديقة)

مارسيللوس — آه هم أنفسهم

باريس — لالا ؛ لماذا ضعفت ؟ إن قلبى يذود عنى إزاء الفن الى الأبد ... لتدخل ...

(مارسيللوس ينطلق ليفتح الباب ويقف لحظة جامداً)

نعم : لتدخل ! لقد كنت أخاف قبلاً ، والآن يتراءى لى كل شىء إزاء أبى الهول بخاراً متلاشياً . إذهب الى لقائها ، ولتأت ولتعلم أن كل شىء — حيث يقيم أبو الهول — سحاب عابر : إنها أصبحت — عندى — لا شىء

إزابيلا — (صائحة)

باريس !

(تمد يداها ثم يسقطان على فراغ)

هذا الذى كان يكتب لى قبلاً

(يتبع) خليل هنداوى

....

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر